من مثقفين برجوازيين واقطاعيين ، من شعراء سورياليين ودعاة للعودة الى حياة الصحراء ، من مثقفين في اللغة الانكليزية وآباء يرفضون ذهاب البنات الى الجامعة فيحضرون الجامعة (اساتذتها) الى البيت ، وخلال كل ذلك تدور نقاشات وحوارات عالية المستوى حول الشعر والمدينة والصحراء والالتزام والزمن والاساطير اليونانية ، ومن خلال كل ذلك فان جميل فران (شخصية الرواية الرئيسية) يكتشف بغداد ومجتمعها بمفاهيمه وعائلاتـه ونضالـه السياسي . فمن هو جميل فران هذا ، ومن هي باقي الشخصيات التي تنسج شبكة العلاقات والحوادث في الرواية ، والتي تقدم بغداد ، أواخر الاربعينات ؟

تبدأ الرواية بمشهد وصول جميل فران الى بغداد بعد ان احتل الصهيونيون القدس ودمروا منزله ومنزل خطيبته ليلى التي قتلت تحت الانقاض ، لكنها عاشت في ذاكرة جميل (كالفقر في ذاكرة أمين في « صراخ في ليل طويل ») « الصراخ » رمزا ومعادلا لفلسطين . وجميل استاذ في اللغة الانكليزية متخرج من كمبردج ، يعرف الثقافة العالمية جيدا (شأن كل شخصيات جبرا) من الاساطير اليونانية وبوذا مرورا بمايكل انجلو والخيام ووصولا الى برليوز وموسيقاه .

اضافة الى « جميل فران » هناك « عدنان طالب » ، سليل اسرة غنية ، مثقف ، وشاعر له رؤى تدميرية وقصائد سوريالية . كذلك « عبد القادر ياسين » محام وكاتب قصة قصيرة ويساري « له نظرياته في كل امر من امور الحياة من الشعر الى الثورة » (ص ٩٠) . هناك كذلك « توفيق خلف » ، بدوي عشائري هو نقيض الشخصيات المتمدينة المتغربة : انه يرفض المدينة وثقافتها ولا يرضى بأقل من العودة الى الصحراء ، لكن المفارقة في هذه الشخصية انها ــ كذلك ــ مثقفة ، خريجة جامعة تتحدث ــ في موضوعاتها وحواراتها ــ حديث المثقفين إياه ، ومن هنا تبدو دعوتها للعودة الى الصحراء ، وارتداؤها الملابس البدوية وحمل المسدس في تناقض صارخ مع حديثها عن الزمن والحضارة والشرق والغرب : انها شخصية كرتونية تتناقض، في سلوكها وكلامها ، مع الجوهر الذي أراده المؤلف لها . هناك كذلك الشخصيات الارستقراطية . « عماد النفوى » المثقف (بالطبع) والسياسي الرجعي ، وهو والد « سلافة » التي يعلمها « جميل فران » ويحبها . انه يرفض ذهاب ابنته الى الجامعة فيحضر لها المدرس « جفيل فران » الى البيت ليعطيها دروسا في الأدب الانكليزي (لماذا الادب الانكليزي تخصيصا ؟!) . وهناك كذلك السيدة « سلمى الربيضي » خالة سلافة : وهي سيدة صالون غنية ومثقفة ومتحررة تحب « جميل فران » ، وهي زوجة عضو في مجلس الاعيان : انها تشبه سيدات الصالون الاوروبيات المشهورات باهتمامهن بالحفلات والفنون والاداب والعشيق ، وكذلك توجد في الرواية شخصية انكليزية هي « برايان فلنت » المتخرج من جامعة اكسفورد والذي يعمل في البنوك ، وكل تلك الفسيفساء المتشابهة من الشخصيات تأتي لتقدم للمشهد ــ الوضع ــ الاجتماعي التالي :

لقد انتزعني المشهد المثير من خمولي ، مضت النساء ، ومعظمهم يرتدين العباءات السوداء ، ومشين عبر تلك الحركة الدائبة برشاقة عارضات الازياء وهيبة الراهبات . اما في السيارات فقد كان من الممكن رؤية الاذرع الانثوية العارية وهي تستند على الابواب . إما الرجال فلم يكن بينهم من يشبه غيره في الملبس ، فلباس الرأس يتباين ما بين